الفكر واللغة

بقلم الدكتور نقولا زياده

عندما اقرأ كاتباً او اتحدث اليه ، اجد نفسي ، في النهاية اصدر حكماً او عليه . وحكمي يرجع الى ما زودني به من آراء حرية بالعناية . فبقدر ما تكون هذه الاراء قيمة اراني معجباً به . وبقدر ما تسف اراؤه اجد نفسي ناقماً عليه . والاعجاب والنقمة لا يكونان دائماً على اساس ما اتفق معه او ما اخالفه في الرأي ، ولكن بقدر ما في ارائه من عمق .

ولكن ما الذي يجعل الاراء عميقة قيمة ؟ لا شك ان ذلك يتوقف على تجارب الكاتب الروحية واختباراته الثقافية الفكرية . هذا صحيح . ولكن ثمة كثر من الناس من لهم تجارب روحية واختبارات عقلية ، ثم تراهم يحتفظون بهذه الامور لأنفسهم . فهل سبب ذلك حرصهم على ذلك ؟ قد يمكن ان يكونوا ضنينين . ولكن يغلب على ظني انه حتى يتمكن المرء من نقل تجاربه واختباراته الى شخص آخر يجب ان يملك وسيلة لذلك . والوسيلة هي اللغة اي المقدرة على التعبير عما يخالج النفس والفكر . وبقدر ما نملك من هذه الوسيلة يمكننا ان ننقل آراءنا الى الآخرين .

على ان الذي يثب الى الذهن حالاً في هذه المناسبة هو ما هي هذه اللغة ؟ ويتلو ذلك سؤال آخر لماذا يختلف الناس الى هذا الحد في فهم الامور ، في النثر والشعر على السواء ؟

ولعل الاجابة على هذين السؤالين ، تقتضي معرفة في علم اللغة والاجتماع والنفس لا املكها . ولكن الذي احاوله الساعة غرض القضية من ناحية الاختبار الشخصي مع نفسي ومع جماعات صغيرة احتككت بها في حياتي الطويلة.

وأول ما يبدو لنا حرياً بالعناية هو ان نتفق فيما بيننا على ما يسمى اللغة . فقد علمنا مدرسونا ونحن اطفال ان اللغة الفاظ يعبر بها كل قوم عن انفسهم . ولكن بعد ان احتجنا اللغة عملياً لنقرأ ونكتب ، وبعد ان اتيح لنا ان نتعرف الى غير ناحية من نواحيها ، عرفنا ان اللغة ليست الفاظاً فحسب ولكنها آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ولون من الوان الشعور وفلسفة في الحياة . فهي اذن الحياة الفكرية النامية المنبثقة من اعماق النفوس والخارجة من القلوب .

فاذا اخذت الكلمة الواحدة في لغة من اللغات وجدت انها تحوي ما مرت به الجماعة من اختبارات تاريخية وتجارب ، تجمعت كلها في تلك اللفظة . وإذن فالجماعة التي تعرف من هذه التجارب قلة تكون الفاظها محدودة . والتي تمر بها اختبارات عقلية فكرية روحية وثابة خلاقة تنمو الفاظ لغتها . وهذا هو مصدر الثراء العقلي ، والشعور الفياض . وبقدر ما تكون اللفظة وحدها لبنة خاصة ، فانها عندما توضع في جملة معينة تصبح جزءا من البناء . واذن فهذا البناء هو الذي يجب اعتباره نقطة انطلاق في فهم القارىء للكاتب والمستمع للمحدث .

على ان هذا ينقلنا الى امر اخر . ذلك هو ان الكاتب والقارىء والمتحدث والسامع يختلفون في مدى استعدادهم ومعرفتهم لهذه « اللبنات اللغوية » ، ومن ثم يكون مدى تفاهمهم وتبادلهم الرأي متوقفاً على هذه المفارقات الفردية . فالشاعر او الكاتب الذي اغترف من مناهل الفكر ، واتصل بالحياة اتصالاً وثيقاً ، تبقى في نفسه من هذه الامور كلها اشياء تتفاعل وتتصادم فيخرج منها شعره او نثره شاملاً لها جميعها او معبراً عما يحترب في ضميره من متناقضات او يجيش في وجدانه من ثورة .

ويترتب على ذلك ، فيما نرى ، انه عندما يكون هذا الوجدان هو موضع القصيدة او المقال تتأثر محتوياته بظروف الشاعر او الكاتب واحواله ، كما يتأثر حديثه وقوله بذلك . فكلمة « تضحية » تعني في وجدان الحب غير ما تعنيه في وجدان الوطنية او الاحسان . ومثل ذلك يقال في القارىء والسامع . فاذا كان في وضع نفساني يتفق مع روح المقروء او المسموع كانت لهذا في نفسه رنة اقوى وصدى اعمق وتأثير اكبر . اما اذا كان اختباره الشخصي يتناقض تماماً مع روح المكتوب او المقول ، كان تأثره ضحلاً ضئيلاً .

ويخيل الينا ان الذي يمكن ان يستخلص من هذا ومن غيره هو ان الثروة الفكرية للفرد او الجماعة هي هذه الالفاظ والتراكيب التي يملكها الفرد او الجماعة . ولا يمكن للناس ان يفكروا خارج نطاق هذه اللغة التي يملكون ناصيتها . وبقدر ما تتسع هذه يتسع تفكيرهم وينضج .

والأمة التي تستمر لغتها نامية قوية نابضة بالحياة غنية بالفكر مليئة بزيادة من التجارب ، هذه الامة تسير قدماً نحو مشاركة العالم في نتاجه الفكري وتعمل جاهدة في سبيل الخلق الفكري ايضاً ؛ اي انها تحصل على حقوقها وتقوم بواجباتها . اما الامة التي تتجمد لغتها ، فهي التي يقف نموها ويتحجر تفكيرها ، فتفقد المقدرة على المشاركة ، كما تفقد ، بطبيعة الحال ، المقدرة على الخلق والابداع .